الفصـل الأول

حقنا وباطلهم

عبد القادر ياسين

تاهت العنزة، فخلقت لليهود واليهودية أزمة.

طفق الراعي الفلسطيني يفتّش عن عنزته التائهة، وخلال جولته شاهد كُوَّة صغيرة مرتفعة، في واجهة سفح الجبل، فألقى حجرًا داخل الكُوَّة، اصطدم بمادة فخارية. أعاد الفتى الكرَّة، وتكرر سماعه للمادة الفخارية. تسلق الفتى الراعي سفح الجبل، وأطل داخل الكُوَّة، فشاهد أوعية فخارية، مصفوفة في أرض الكهف [1].

عاد الفتى في اليوم التالي ومعه صديق، ساعده على الدخول من الكُوَّة، فظفر بالأوعية الفخارية، وفي داخلها لفافات بها سبع مخطوطات. وبدأت كرة الثلج في التدحرج. حيث اشترى تاجر أنتيكات في بيت لحم، اسمه خليل إسكندر شاهين، وشهرته كاندو، أربع مخطوطات لرئيس دير سانت مارك، للكاثوليك السوريان، مارأثاناسيوس صموئيل، بينما اشترى المخطوطات الثلاث المتبقية البروفيسور إليعازر سوكينوك، لحساب الجامعة العبرية بالقدس.

جرت هذه الأحداث في منطقة الجبال الواقعة شمال شرقي البحر الميت، جنوبي مدينة أريحا، في مناطق قمران، ومربعات، وجزيرة ميرد، وعين جدي، والمسادة الإسرائيلية، في أحد أيام شتاء العام ١٩٤٦.

في أبريل/ نيسان ١٩٤٨، أعلنت «جامعة يل» الأمريكية اكتشاف مخطوطات باللغة العبرية في كهوف قمران، على ساحل البحر الميت، على أيدي بدو، واستمرت الاكتشافات حتى سنة ١٩٥٦. ولمدة سنتين، ظلت اللفائف تُباع بالسنتيمتر الواحد، واستغرقت عملية جمع هذه النُّتف بضع سنين، تحت إشراف المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية في القدس، التابعة للفاتيكان، وقد أشرفت تلك المدرسة على فريق دولي لدراسة هذه الأوراق؛ لهذا فإن أي مادة منها لن ترى النور إذا كانت تؤثر سلبًا على العقيدة الكاثوليكية الرومانية [2].

قبل حرب ١٩٦٧ العربية ـ الإسرائيلية، كانت المخطوطات في «متحف روكفلر» بالقدس، تحت إشراف إدارة الآثار الأردنية. ثم وضع الاحتلال الإسرائيلي يده على هذه المخطوطات بالكامل(*) [٣]. ما وفر لهذا الاحتلال سانحة ذهبية للتلاعب بهذه المخطوطات.

أنهى الاحتلال السيطرة الكاثوليكية على مخطوطات قمران منذ العام ١٩٩١، ونقلت السيطرة إلى «دائرة الآثار الإسرائيلية». واتهم كتاب لمايكل بيجنت، وريتشارد لي، صدر في لندن، الفاتيكان بتحريف ترجمة مخطوطات قمران، وإخفاء معلومات من المخطوطات. ثم صرح رئيس لجنة المخطوطات في إسرائيل، جون إستروغنل، بأن اليهودية «ديانة مرعبة»، مجرد «هرطقة» للديانة الصحيحة [٤].

لقد تأكد بأن هذه المخطوطات بقايا مكتبة عامرة، تعود إلى جماعة دينية غير معروفة للعالم، اتخذت من منحدرات قمران مقرًّا لها. والأهم أن تلك الجماعة قريبة العهد من الألفية الأولى الميلادية، مما أهلها للكشف عن خفايا القرن الأول للميلاد، الأقل توثيقًا، والأكثر غموضًا. وقد نسفت نصوص المخطوطات الكثير من الشائع والموروث، كما وضعت الشخصيات الدينية في سياقها التاريخي. وتوزعت المخطوطات إلى قسمين، **أولهما**: مجموعة نسخ من أسفار «العهد القديم»، تسبق النسخة المعروفة للعالم بنحو ألف سنة، وتتضمن رؤى وشروطًا مغايرة، تتفق مع النسخة السامرية للتوراة، التي يعتبرها الغرب مجرد هرطقة. فيما اشتمل القسم الثاني من المخطوطات على موضوعات غير توراتية، معارضة لمؤسستيْ الحكم، والهيكل، الموالتين للسلطة الأجنبية الوثنية المحتلة. امتد وجود «جماعة قمران» من الفترة المكابية (١٥٠ـ ٣٠ ق.م)، إلى ما بعد ظهور المسيحية في فلسطين، في القرن الأول للميلاد. ولقد احتدم النقاش، في ثمانينيات القرن العشرين، بين التيارين، اللاهوتي المتزمت، والليبرالي المنفتح، حول نقطتين أساسيتين: تاريخية المرحلة، وهوية الجماعة المسوؤلة عن كتابة تلك الوثائق. اللاهوتيون يؤكدون بأن جماعة قمران ليست سوى الطائفة اليهودية القديمة المعروفة بالإيسينيين(**)، الذين ظهروا ما بين ١٥٠ ـ ٣٠ ق. م، رافضين فساد الملوك المكابيين، وكهنة الهيكل، فهجر الإيسينيون المجتمع إلى الصحراء، حتى داهمهم الرومان، وقضوا عليهم (٦٨ م). فيما يؤكد الباحثون الليبراليون بأن الوثائق تعود إلى القرن الأول الميلادي، وترتبط، حصريًّا، بالأسرة الهيرودية، والرومان[٥].

(*) حين شُن «العدوان الثلاثي» الاستعماري على مصر وقطاع غزة، خريف ١٩٥٦، أمر المشرف على المتحف ـ وكان إنجليزيًّا ـ بنقل المخطوطات إلى عمان، الأمر الذي لم يخطر ببال المسئول العربي عن المتحف عند وقوع عدوان ١٩٦٧، والذي لاحت نذره قبل نحو شهر من شن العدوان. وقد تصادف وجود مخطوطة واحدة منها في عمان!

(**) **الإيسينيون**: هم «المؤسسون» باللغة اليونانية، وفقًا للمؤرخين القدامى (فيلو/ يوسيفوس/ بليني) فرقة دينية منشقَّة، تكونت، في وقت ما من الفترة الحشمونية/ المكابية (١٥٠ ـ ٣٠ ق. م)، حوالي ١٥٠ ق. م؛ استياءً من فساد وتهاون مؤسسة الهيكل في أورشليم. فنأت تلك الفرقة بنفسها بعيدًا، وعاشت في البرية، حتى دمر الرومان موقعها (٦٨ م). وهي جماعة متدينة بعمق، ولدى أعضائها ثيابًا كتَّانية بيضاء، ويحيون معًا حياة مشتركة، في عزلة تامة عن الأحداث الدائرة من حولهم. يلتزمون، بدقة، بشعائر الطهارة، ويزدرون العبادة في هيكل أورشليم. ويتنازل الأعضاء، طواعية، عن أموالهم، وممتلكاتهم الخاصة لصالح الجماعة، ويمارس الأعضاء شعيرة العماد، وينكبُّون على دراسة التوراة، ويشتركون معًا في الوجبات الجماعية المقدسة.

بالبحث والتدقيق، برهن باحثون موضوعيون بأن الخلفية التاريخية للوثائق المسيحية لا تتفق مع مرحلة ما قبل المسيحية، بل تتزامن مع الثورة التي عمت البلاد (٦٦ ـ ٧٤ م)، ورأوا بأن الوثائق سوف تساعد على فتح مغاليق القرن الأول للميلاد، الحافل بالغموض، رغم أهميته القصوى.

العوري، مخطوطات ....، **مرجع سبق ذكره**.

غني عن القول بأن حرص الصهاينة على إثبات الآراء والتوجهات اليهودية جاء كهدف تأكيد بأن ما اعتقده المسيحيون منزَّلاً، لا يعد يهودية متطرفة، وليس خروجًا على دين الآباء، وإنما مذهب من مذاهبهم[٦].

لقد أكد المؤرخ اليهودي المعروف يوسيفوس (٣٧ ـ ٩٦ م) بأن الإيسينيين مقاتلون أشداء، لا يهابون مواجهة الخطوب. وتخالف المخطوطات التي عُثر عليها ما أورده المؤرخون الثلاثة (يوسيفوس، وفيلو، وبليني). وتنطوي وثائق البحر الميت على ما هو أكثر حسمًا، باكتشاف استخدام الجماعة لعبارة «المحافظون على العهد»، في تعريف توجهها. وجاءت العبارة بالعبرية Nozrei ـ habrit (ناصريه هبريت)، ومنها اشتُق مصطلح (نصراني)، أحد الأسماء الأولى لما أصبح يُعرف، حوالي العام ٥٠ م، بالمسيحيين، الاسم الذي لا يعود إلى مدينة الناصرة، إذ لم تكن هذه المدينة قد وجدت بعد[٧].

لم تستسلم إسرائيل للمخطوطات، بل سخَّرتها ـ وقد غدت تحت سيطرة الدولة الصهيونية ـ لخدمة الأغراض الصهيونية، في محاولة لاعتبار المخطوطات التي عُثر عليها مكتبة للأصوليين اليهود، وليس لجماعة العيسويين المتمردين على سلطة الكهنة. وتُوِّجت محاولات إسرائيل هذه في مؤتمر عُقد في الجامعة العبرية بالقدس، في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٩[٨].

لقد تسترت إسرائيل ـ وعاونها في هذا الفاتيكان ـ على مخطوطات البحر الميت التي نسفت المزاعم الصهيونية بخصوص القدس وفلسطين.

لأهمية مخطوطات قمران، بدأنا بها فصلنا هذا، لكن لنعود، من جديد، إلى موضوعنا.

جذر المسألة

اجتاحت المياه جزيرة العرب في الألف السادس قبل الميلاد، فاندفع سكان الجزيرة يفتِّشون عن مناطق يلوذون بها، وانطلقوا إلى العراق، وسوريا، وإليهما نقلوا حضارتهم. في العراق حملوا اسم «السومريين»، وفي سوريا «العموريين». أما التزوير في هذه الحقائق التاريخية، فهدف إلى التحضير للاستعمار الصهيوني.

حسب مؤرخ مقدسي مرموق معاصر، العموريون هم بناة القدس. ذلك أن اسمها الأول (أوروسالم) اسم عموري، كما أن أول اسمين عُرفا لأول أميرين لمدينة القدس (باقر/ عمو، وسز ـ عمو) عموريان. فضلًا على أن تلة موريا ـ إحدى التلال الأربعة التي تقوم عليها مدينة القدس ـ اعتبرها المؤرخون «أرض العموريين». ولقد انبثق الكنعانيون من العموريين انبثاق اليبوسيين من الكنعانيين. ويذهب المؤرخون وعلماء الآثار إلى أن القدس بنيت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد على أربع تلال، إحداها تل الضهور (تل أوفل)، قرب عين ماء جيجون (سلوان أو أم الدرج، الآن). وقد وجد إبراهيم (عليه السلام)، عام ١٩٠٠ ق. م، ملكًا كنعانيًّا عربيًّا، هو ملكي صادق، يُقدِّس (المسجد الأقصى). ولقد استمر تغيير حدود القدس، بتأثير أعمال الهدم، وإعادة البناء، حتى استقرت على ما كانت عليه عند الاحتلال الإسرائيلي لها في حرب ١٩٦٧[٩].

نخلص من هذا إلى أن نشأة أي مدينة هي المحدد الأساسي لهويتها الأصلية، وأصحابها الحقيقيين.

احتل الفراعنة القدس(*)، وأطلقوا عليها اسميْ «يبوس»، و«أويابيش»، وأحيانًا كانوا يتعاملون معها باسمها الكنعاني (أوروسالم).

حين غزا الآشوري سنحاريب فلسطين، عام ٧٠١ ق. م، فرض على اليهود الجزية، قبل أن ينقض البابلي نبوخذ نصَّر، عام ٥٨٧ ق. م، على القدس، ويهدم الهيكل(**)، ويسبي اليهود. واحتل الإسكندر المقدوني فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد. وفي عام ٦٣ ق. م، احتل الرومان القدس، بقيادة الملك بوميوس، وهدموا الكثير من مبانيها، بما فيها الهيكل.

ظلت القدس عرضة لغزوات الفرس والروم، ما عرَّض المدينة المقدسة للتدمير غير مرة، وإن أُعيد بناؤها، حتى ولد المسيح (عليه السلام) في عهد الحاكم الروماني على القدس، هيرودوس. وحين نظَّم اليهود اضطرابات ضد الحكم الروماني، قمعهم الملك تيطس، وهدم القدس والهيكل، سنة ٧٠ م. لكن الإمبراطور هدريان أعاد بناء المدينة دون الهيكل، سنة ١٣٧م، وأطلق عليها اسمًا جديدًا، هو «إيليا كابيتولينا»، وحرم هدريان اليهود من دخول القدس.

لقد انتشر الدين اليهودي في فلسطين إبان الحكم اليوناني، لكنه عاد وانحسر إبان الحكم البيزنطي لحساب المسيحية أولًا، ومن بعدها الإسلام. لذا لا تاريخ لليهود في فلسطين، بل إنهم ضمن دائرة التاريخ الفلسطيني في محطة عابرة، وكذلك تراثهم(١٠).

بانشقاق الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٩٥ م، غدت فلسطين ضمن الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية). وفي عام ٣١٢م اعتنق الإمبراطور البيزنطي، قسطنطين، المسيحية، وحذا رجال الدولة حذو إمبراطورهم، فالناس على دين ملوكهم! وحين زارت والدة الإمبراطور، هيلانة، القدس، أمر قسطنطين ببناء كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد ببيت لحم.

في عام ٦١١ م غزا الفرس فلسطين، بقيادة كسرى أبرديز (الظافر). ثم احتلوا قيسارية، فالقدس (٦١٤ م). حيث هدموا كنيسة القيامة لأول مرة، ودام احتلالهم للقدس أربعة عشر عامًا. إلا أن الإمبراطور هرقل هزمهم في معركة نينوى (٦٢٧ م). وقد انتقم هرقل من اليهود، بسبب عمالتهم للاحتلال الفارسي. وفي عام ٦٣٤ م، لاحت طلائع الفتح الإسلامي، الذي وصل إلى القدس ٦٣٨ م (١٦هـ). واشتمل فتح كل الأراضي السورية (٦٤٠م)، وطرد البيزنطيين الرومان منها. وظلت القدس عربية إلى سنة ١٠٩٩ م، حين أخلاها الفاطميون للفرنجة. الذين نظَّموا مذبحة رهيبة في المدينة المقدسة، قُتل فيها نحو سبعين ألفًا، عدا أعمال السلب والنهب. واتخذ الفرنجة من القدس عاصمة لمملكتهم اللاتينية، وأحلوا بطريركًا لاتينيًّا محل البطريرك العربي. إلى أن حرَّر صلاح الدين الأيوبي القدس عام ١١٨٧ م. وفي العام ١٥١٧ بدأ الحكم العثماني للقدس. إلى أن احتلتها القوات البريطانية أواخر الحرب العالمية الأولى (٩/ ١٢/ ١٩١٧)، وفي ٧/ ٦/ ١٩٦٧ أكملت القوات الصهيونية احتلال المدينة المقدسة، ولا تزال.

(*) احتلها تحتمس الثالث، ١٤٧٩ ق. م، وأمنحتب، ١٤١٣ ق. م، وأخناتون، ١٣٧٥ ق. م، وتوت عنخ آمون، ١٣٥١ ق. م، وبنحو، ٦١٠ق. م.

(**) قيل إن يوشع بن بتاه هو الذي بناه، وإن سليمان (عليه السلام) أكمل بناءه.

نخلص من هذا كله إلى أن العرب هم الذين بنوا القدس قبل نحو خمسة قرون، وقد تأكدت عروبتها، أولًا بظهور المسيحية فيها سنة ٣٠ م، ثم الفتح العربي سنة ٦٣٨ م. فيما جرى تسخير «الوعد الإلهي» المزعوم بمنح «شعب الله المختار» «أرض الميعاد»، عبر إبراهيم، فموسى (عليهما السلام)، ثم جرى توثيق ذلك «الوعد» في أسفار جوشوا، والقضاة، لتوفير الذرائع للغزوة الاستعمارية الصهيونية، التي بدأت بفلسطين، لوحة قفز إلى بقية أرجاء الأطماع الصهيونية في وطننا العربي «من النيل إلى الفرات».

فيما سقطت عن اليهود صفة «شعب الله المختار» ـ التي منحت لهم حين كانوا الأبناء الوحيدين لرسالة سماوية بمجرد أن عبدوا الأوثان، وخرجوا على العهد، ثم ظهرت المسيحية، فالإسلام. وإذا كان اليهود «شعب الله المختار»، فماذا يكون المسيحيون والمسلمون؟! أما «عودتهم إلى فلسطين»، فتمت بوعدٍ من بلفور، وليس بوعدٍ من الله، كما يؤكد بابا العرب[١١].

إن كل ما قيل عن وعد مقدس بفلسطين لليهود لم يثبت، علميًا، وهو ـ حسب تعبير البروفيسور نورمان كانتور، أكبر كُتَّاب اليهود في التاريخ ـ «شيء ينتمي إلى عالم الأدب، أكثر مما ينتمي إلى عالم الدين». ويعزز كانتور كلامه هذا برأي الأستاذ في جامعة كاليفورنيا الأمريكية، روبرت ألتر، وفيه جاء: «إن التوراة المتداولة يجب قراءتها بعيون الأدب، وليس بعيون التاريخ، أو الدين». ورصد وليم درايميل، في كتابه عن القدس، وعنوانه «المدينة المسحورة»، كل محاولات التنقيب الصهيونية المضنية، التي فشلت في العثور على «ماضٍ يُبنى عليه حاضر ومستقبل». وبذا فشل «علم الآثار اليهودي» في أن يكون أداة للحركة الصهيونية «تختلق به صِلة بين التاريخ اليهودي القديم، وخنق التاريخ الفلسطيني كله»، حسب أستاذة الدراسات اليهودية في جامعة تل أبيب، د. شولاميت جيفا[١٢].

روايتان

قيل إن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهد رمسيس الثاني، وتوجهوا إلى فلسطين عبر سيناء، سنة ١٣٥٠ ق. م، مع موسى (عليه السلام)، فتاهوا في صحراء سيناء، زهاء أربعين عامًا، قبل أن يجتاحوا شرق فلسطين، بقيادة يوشع بن نون، فاستولوا على أريحا، دون القدس، التي احتلها داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م، لكنها لم تصبح مدينة يهودية خالصة، إذ استمر اليبوسيون يقيمون فيها، ولم يبارحوها.

في كتابه «إسرائيل»، اعتبر العالم لودز «يهوه» معبودًا في كنعان، حيث جمع الأنبياء صفات إديل وبعل، في «يهوه». أما العلاّمة روبير دي لانج فأكد بأن «العبريين اغترفوا من الكنعانيين». وقد نهلت التوراة من الإنتاج الأدبي في فلسطين. فالعبريون كانوا يعيشون في نصف بداوة، فيما تقدم الكنعانيون عليهم، خاصة في المجال الثقافي. وقد فسرت نصوص رأس شمرة نصوصًا توراتية، **أولًا**: اللغة والمصطلحات التوراتية، **وثانيًا**: أساليب التوراة، وآدابها، **وثالثًا**: التقاليد الدينية، والمعتقدات، والطقوس الدينية، **ورابعًا**: التقاليد التاريخية، والجغرافية، المنتشرة في التوراة[١٣].

على أن ثمة رواية أُخرى تقطع بأن اليهود لم يمروا حتى بفلسطين، وأن مملكتيْ «إسرائيل» و«يهودا» لم تقوما على أرض فلسطين، بل على ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية (عسير، والجزء الجنوبي من الحجاز، وفي قول آخر اليمن، تحديدًا). ويُستدل على هذا بذكر مئات المواقع، والمدن، والقرى، والجبال، والأنهار، التي لا تزال تحمل الأسماء نفسها، التي ذكرتها «التوراة». مما يجعل التاريخ الذي يلوِّح به الصهاينة محض أكذوبة تاريخية كبرى.

لقد أكدت نسبة كبيرة من الباحثين العرب، ممن تصدوا لدراسة التوراة، على صحة التاريخ بعموميته، وخطأ الجغرافيا[١٤]. أي سلموا بالحدث التاريخي، وإن أكدوا خطأ تحديد جغرافيته[١٥]. فثمة من أكد ـ عبر جملة لا تقبل الشك من الأدلة والبراهين ـ على أن عسير والجزء الجنوبي من الحجاز[١٦]، أو اليمن نفسها كانت هي مسرح الحوادث التاريخية للتوراة[١٧].

ما جعل أحد أولئك المتصدين يذهبون إلى التأكيد بأن كتاب التوراة لا يخرج ـ في مجمله ـ عن إطار التراث العربي، الذي كان يُحفظ مدوَّنًا في الذاكرة لعشائر عربية عاشت أحداثًا معينة، في منطقة بدوية، ضيقة من شبه جزيرة العرب[١٨].

ننتقل إلى العلماء الغربيين، حيث زار المستشرق النمساوي «آلويس موسيل ـ Alois Musil» مواقع التاريخ التوراتي، فتوصل إلى أن سيناء التوراتية ليست سيناء الحالية. وبالتالي فإن الآراء الشائعة حول موسى، وحول الديانة اليهودية ليست صحيحة[١٩].

من خلال العادات، والأخلاق الاجتماعية المشتركة للإسرائيليين مع أهل سبأ بالجزيرة العربية، فضلًا على الألفاظ المشتركة بين اللغتين (السبئية والعبرية)، وتشابه بعض أسماء الأعلام، توصل ولفنسون (إسرائيل) إلى أن الموطن الأصلي لبني إسرائيل لم يكن سيناء، بل بلاد اليمن[٢٠].

فيما أثبت المستشرق الألماني «هوغو ونكلر ـ Hogo Winckler» بأن «مصري» هي أرض شمال الجزيرة العربية، وأن مصر المذكورة في التوراة هي في جزيرة العرب، وليست في أفريقيا[٢١]. كما تنتمي هاجر المصرية إلى مصر إحدى مقاطعات الجزيرة العربية (معن مصرن)، وبالتالي فإن القصص الواردة في التوراة عن مصر وفرعون تخص تلك المقاطعة، وملكها العربي[٢٢].

الأمر الذي يعززه المؤرخ العالمي الشهير، هـ. ج. ويلز، حين رجَّح أن تكون (مسريم) في شمال جزيرة العرب هي المقصودة بـ «مصر»[٢٣]. ما جعل باحثًا عربيًّا فلسطينيًّا يستند إلى هذه البيِّنات كلها، ويضيف بأن الأبحاث الأثرية في وادي النيل، التي امتدت على مدى عقود، لم تؤكد الأحداث التوراتية[٢٤].

ليت الأمر اقتصر على الباحثين العرب والغربيين، بل إنه امتد إلى الإسرائيليين أنفسهم، بما فيهم «دائرة الآثار» الحكومية في إسرائيل[٢٥]. وهذا عالم آثار إسرائيلي معتمد يؤكد أنه «بعد سبعين عامًا من الحفريات المكثَّفة في (أرض إسرائيل)، توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة: لم يكن ثمة أي شيء على الإطلاق! حكايات الآباء مجرد أساطير! لم نهبط إلى مصر! ولم نصعد من هناك! لم نحتل البلاد(*)! ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان! الباحثون والمهتمون يعرفون هذه الحقائق منذ زمن، أما المجتمع [الإسرائيلي] فلا ... ففي العشرين سنة الأخيرة، هناك ثورة حقيقية في نظرة الباحثين الإسرائيليين للتوراة، كمصدر تاريخي ... [إن] مراحل تشكل (شعب إسرائيل) كانت مختلفة، تمامًا، عما ورد في التوراة ... المملكة المتحدة لداود وسليمان ـ التي توصف في التوراة باعتبارها دولة إقليمية عظمى ـ كانت، على أقصى تقدير، مملكة قبلية صغيرة ... ففي (أرض إسرائيل) لم تكن ثمة ظروف مواتية لقيام مملكة واسعة

(*) يقصد فلسطين.

... مدرسة نقد التوراة ـ التي ازدهرت في ألمانيا ـ بدأت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شككت في تاريخية قصص التوراة ... [التي] تمت صياغتها، وفبركتها، إبان السبي البابلي ... [أما] تاريخ (شعب إسرائيل) ... فليس سوى إعادة صياغة متأخرة للماضي، هدفها (لاهوتي) ... علم الآثار في (أرض إسرائيل) حقق هدفه: خلق صورة متناسقة للماضي، تستند إلى التوفيق بين المصادر الأدبية وبين الآثار المكتشفة على الأرض»[٢٦].

مع هذا كله لا يزال بين ظهرانينا من يعتبر «التوراة» أقدم مرجع تاريخي!

حتى لو لم نأخذ بحقيقة أن اليهود لم يخرجوا من مصر، ولم يتجهوا إلى فلسطين، بل وُجدوا على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، فلا حق لغاز، فضلًا على أن الحقوق التاريخية للشعوب تسقط مع زوال هذه الشعوب. ناهيك عن أن يهود اليوم ليسوا ورثة قدماء اليهود، بل إن ٩٥ في المائة من يهود اليوم ينحدرون من دولة الخزر التي تهوّد ملكها سنة ٧٤٠ م، وتبعته رعيته[٢٧]. والأنكى أن العرقية لم يعد يؤخذ بها في عالم اليوم، والأهم: هل يمكن لشعب ما أن يزعم نقاءه العرقي على مر التاريخ؟!

الاستنتاجات

تتصدى أسماء القدس، ومواقعها الجغرافية لكل محاولي تزوير تاريخها. فلغويًا كان العموريون العرب أول من قطن القدس، منذ ما قبل التاريخ، وقد تجلت لغتهم، وأسماء آلهتهم في أسماء مدنهم. فأور تعني بالكنعانية «مدينة»، و«سليم» إله كنعاني، يرمز للسلام والكمال. هكذا «جاء الغزاة، وذهبوا، وبقيت البلاد تحمل أسماءها الكنعانية القديمة»، حسب مسز فن، زوجة القنصل البريطاني في القدس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢٨].

لقد ورد اسم القدس في نصوص «اللعن» المصرية، التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية (١٩٩١ ق. م). وكان حاكم المدينة المقدَّسة عربيًا، كنعانيًا، أو عموريًا. فضلًا على أن اسم القدس تردد في رسائل «تل العمارنة»(*) غير مرة في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أي أن العموريين هم بناة القدس، منذ العصور الحجرية القديمة، قبل ظهور اليهود بمئات السنين. حتى أن التوراة نفسها أشارت إلى القدس باعتبارها عاصمة لليبوسيين (سفر القضاة ٩ : ١١ ـ ١٢).

خمسة آلاف سنة قضتها القدس على وجه الأرض، تعرضت خلالها لأكثر من عشرين حصارًا، وخمسة وعشرين احتلالًا، دُمِّرت خلالها، وذُبحت النسبة الأكبر من أهلها. في الوقت الذي تمسك أحد أولئك الغزاة بحق الغزو والاحتلال، في جرأة غير مسبوقة على الحق والتاريخ.

قيل إن هذا الطرف الغازي إنما عبر لمدة سبعين سنة فقط في حياة القدس، منذ ما يربو على الثلاثة آلاف سنة، واعتبر الطرف إياه عبوره الاحتلالي هذا بمثابة صك ملكية! متغافلًا عن كون العموريين العرب هم الذين بنوا هذه المدينة، قبل خمسة آلاف سنة، وظلوا منزرعين فيها حتى اليوم.

(*) ألواح تل العمارنة: هي لوحات مسمارية، تضمنت ست رسائل، بعث بها عبد ـ خيبا، ملك أوروسالم، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى فرعون مصر (إخناتون)، شكا فيها الملك من هجمات الخابيرو، أو العبيرو، على القدس. وقد تم اكتشاف تلك الألواح في مصر، بدءًا من العام ١٨٨٧، مكتوبة باللغة الأكادية المحرَّفة. وأحيانًا الكنعانية. وتضمنت معاناة مندوبي فرعون مصر في المدن الكنعانية، فيما تطابقت أسماء تلك المدن مع مدن في فلسطين والجزيرة العربية في آن.

العسلي، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩٩.

لافتقارهم إلى مسوِّغات ملكية هذه المدينة المقدَّسة، لاذ الصهاينة بالدين اليهودي، علَّه يسعفهم، ويمدهم بما يقطع الطريق على أصحاب الملكية الحقيقيين. فزعم الصهاينة بأن الله وعدهم بأرض فلسطين كلها، ما دفع بعضنا إلى نفي صفة سمسار أراضٍ عن الله سبحانه وتعالى. فيما كان بابا العرب، شنودة الثالث، رد بأن الصهاينة إنما «عادوا» إلى فلسطين بوعد من بلفور، وليس بوعد من الله. وإذا كان ثمة وعد إلهي في هذا الصدد، فإنه قد سقط لخروج اليهود على شروط ذاك الوعد بعبادتهم الأوثان(*).

بذا يقود تتبع تاريخ القدس إلى تأكيد الـهُوِّية العربية لهذه المدينة المقدَّسة، عبر شتى مراحل التاريخ، وحقبه. وقد ظلت القدس مدينة موحدة عبر تاريخها الطويل، فيما تأكدت عروبتها، وتكرَّست مرتين، **أولاهما**: بظهور المسيحية فيها (٣٠ م). **والمرة الثانية**: بالفتح الإسلامي لها (٦٣٨ م)، كما سبق وبيَّنا.

حين ضمت إسرائيل القدس إليها، عمدت دولة الاحتلال إلى توسيع حدود بلدية القدس من حوالي ٦ كيلومترات مربعة، إلى ٧٢ كيلومتر مربع.

نأتي إلى الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس، الذي لم يكتفِ بمصادرة الأراضي، وتهويدها، بل عمد، أيضًا، إلى تغييب العنصر البشري العربي الفلسطيني، وتشويهه، ولعل في هذا ما يفسر كل أشكال التمييز والقمع ضد التعليم، التي يمارسها المحتل الإسرائيلي في القدس.

لقد اعتبر المحتلون الإسرائيليون أهالي القدس، بعد احتلال مدينتهم، أجانب يحملون إقامة دائمة. ثم عاد الصهاينة وضموا المقدسيين إلى «إسرائيل» (٣٠/ ٧/ ١٩٨٠)، ومن رفض الانضمام اعتبر أجنبيًّا في وطنه!

لقد دفع تمسك الكيان الصهيوني بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لذاك الكيان إلى تصعيد اعتداءات المحتلين على الحقوق العربية في المدينة المقدسة، من مقدسات، وممتلكات، وعقارات، وأراضٍ؛ بالتشريعات الجائرة، والإجراءات التعسفية.

في حين يؤثِّم القانون الدولي أي مساس بحرمة أماكن العبادة، ما جعل انتهاك أي من هذه الأماكن جريمة دولية. وقد جرَّمت المادة ٥٣ من اتفاقية جنيف للعام ١٩٤٩ قيام الاحتلال بتدمير أي متعلقات ثابتة خاصة بالأفراد، أو الجماعات، أو السلطات العامة. كما حظرت «اتفاقية لاهاي» للعام ١٩٥٤ أي انتهاك لحرمة أماكن العبادة، واستقر الفقه الدولي على إدانة انتهاك حرمة دور العبادة، أو التعرض لها بالتدمير، أو السلب، أو النهب، أو الإغلاق، أو إلحاق الضرر.

بيد أن افتقار الصهاينة لصك ملكية المدينة المقدسة لم يمنعهم من بذل جهود مضنية لخلق وقائع عنيدة على

(*) حين زار قداسة بابا وبطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، البابا شنودة الثالث، الولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٧٨، سأله الرئيس الأمريكي، حينذاك، جيمي كارتر، عما إذا كان صحيحًا ما نُسب إلى البابا من إنكاره أن يكون اليهود هم «شعب الله المختار»، فرد قداسته بالإيجاب، وعلل ذلك بأنهم كانوا «شعب الله المختار»، حين كانوا الموحدين، دون غيرهم من البشر، فلما أتت المسيحية، ومن بعدها الإسلام سقطت عنهم هذه الصفة، وإلا إذا كان اليهود لا يزالون يحملون هذه الصفة، فهل يكون كارتر والبابا خارجها؟! ناهيك عن أن اليهود عبدوا الأوثان منذ وقت مبكر، ففقدوا تلك الصفة، وبالتالي إذا كان ثمة وعد إلهي لهم فقد سقط!

جلسة مع قداسة البابا، في مكتبة بالقاهرة، ٢١/ ٢/ ١٩٩٧.

الأرض، مستقوية بالقوة الغاشمة التي تنهب الأرض، والمنازل، وتتوسع في الاستيطان، وتضيِّق الخناق على أهل البلاد الأصليين، لإرغامهم على مغادرة مسقط رأسهم، ولإحلال شذّاذ الآفاق محلهم. فهل يستطيعون هضم القدس بعد أن قضموها، وأخذوا في مضغها؟!

كل هذا بينما نتوزع نحن ما بين النواح، والشجب، والتغني بماضينا التليد، والتلويح ـ ليل نهار ـ بحقنا المؤكد في القدس، وإدانة الطرف الصهيوني بتزوير التاريخ، وانتهاك القانون الدولي، وإدارة الظهر للمحافل الدولية، وتغيير الوقائع على الأرض، فيما المطلوب أن يرتقي فعلنا إلى مستوى التحدي. فالقدس التي تحتاج إلى صونها بالعلم والمعرفة، هي أحوج ما تكون إلى تحريرها بالعمل. فصحيح أنه في البدء كان الكلمة، لكنها مجرد البداية، والمطلوب هو العمل الثوري السليم. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩) صدق الله العظيم.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) للمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى :

ـ أحمد عثمان، «إسرائيل» تزيِّف دلالة مخطوطات قمران، **العصور الحديثة** (القاهرة)، العدد الأول، الإصدار الثاني، سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩، ص ٤٤ ـ ٥١.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الاستعانة بـ :

هالة العوري، **أهل الكهف/ قراءة في مخطوطات البحر الميت**، بيروت، دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠.

(٣) **المرجع نفسه.**

(٤) عثمان، **مرجع سبق ذكره.**

(٥) هالة العوري، مخطوطات البحر الميت تكشف المسكوت عنه ، **العصور الحديثة** (القاهرة)، العدد الأول، الإصدار الثاني، سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩، ص ٥٢ ـ ٥٧.

(٦) **المرجع نفسه.**

(٧) **المرجع نفسه.**

(٨) عثمان، **مرجع سبق ذكره.**

(٩) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني ، المجلد السادس، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: كامل العسلي، مكانة القدس عربيًا وإسلاميًا عبر التاريخ، ص ٧٩٨ ـ ٨٠٣).

ـ محمد أديب العامري، **القدس العربية**، عمان، دار الطباعة والنشر، ١٩٧١، ص١٩.

ـ محمود العابدي، **قدسنا**، القاهرة، مطبعة الجبلاوي، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(١٠) د. أحمد صدقي الدجاني، القدس تاريخًا وفكرًا، **القدس** (بيروت)، العدد ١٩، يونيو/ حزيران ١٩٨١، ص ١٦ ـ ١٧ .

(١١) بطريركية الأقباط الأرثوذكس، المركز الإعلامي، **الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وقضية القدس، الالتزام بالقضية والثبات على المبدأ**، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٢ ـ ٦٣.

(١٢) أوردها: محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**. ط ٩، الجزء الأول، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٦، حاشية ص ٦٧.

(١٣) د. نسيب الخازن، **أوغاريت**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦١، ص ٥٣، ٧٨ ـ ٧٩، ٨٣.

(١٤) د. زياد منى، **جغرافية التوراة، مصر وبنو إسرائيل في عسير**، ط١، لندن، دار رياض نجيب الريس، ١٩٩٤.

(١٥) أحمد الدبش، **موسى وفرعون في جزيرة العرب**، دمشق، خطوات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ١٠.

(١٦) د. كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، ط١، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.

ـ منى، **مرجع سبق ذكره**.

(١٧) فرج الله صالح ديب، **اليمن هي الأصل**، ط١، بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.

(١٨) د. أحمد داود، **العرب والساميُّون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دمشق، دار المستقبل، ١٩٩١.

(١٩) أورده:

د. توفيق سليمان، **نقد النظرية الساميَّة**، جـ١، ط١، دمشق، ١٩٨٢، ص ٩٨.

(٢٠) ولفنسون (إسرائيل)، **تاريخ اللغات الساميَّة**، ط١، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٩، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢١) د. جواد علي، **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج١، بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٦، ص ٥٥٧.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٢١.

(٢٣) هـ. ج. ويلز، **معالم تاريخ الإنسانية**، المجلد الثاني، تعريب عبد العزيز جاويد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨، ص ٢٤٥.

(٢٤) الدبش، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(٢٥) يديعوت أحرونوت، ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٠.

ـ د. رشاد الشامي، **الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الادعاءات الدينية التاريخة لليهود في فلسطين**، الهلال (القاهرة)، نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠٠٠، ص ٨ ـ ١٣.

(٢٦) زئيف هيرتزوغ، التوراة، لا إثباتات على الأرض، **هآرتس**، ٣/ ١٠/ ١٩٩٩.

(٢٧) لمزيد من التفاصيل حول هذه الواقعة يمكن الرجوع إلى:

-آرثر كستلر، **القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم**، ترجمة، أحمد نجيب هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ساسلة الألف كتاب الثاني، ١٩٩١.

-د. م. دنلوب، **تاريخ يهود الخزر**، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ١٩٩٠، ص ١٣٥ ـ ٢٣٢.

(٢٨) العسلي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٩٩.

* * *